والأهم من ذلك، أن جهود التسوية، على اختلاف مشروعاتها، لم تصل في جانبها الفلسطيني إلى نقطة حدية كأن يكون هناك مشروع محدد تتوجب الموافقة عليه للتوّ، بحيث تتبرر العودة إلى الأسلحة القديمة التي استخدمت في الخلافات السابقة، أو البحث عن أسلحة جديدة. كما أن تفاوت التصورات الفلسطينية بشأن التسوية، مستقبلاً، لا يصل إلى حد التناقض بين هذه التصورات بحيث يبيح الاقتتال بين دعاتها المتعددين. بل لعلنا لانبالغ إذا قلنا إن الأمر على نقيض ذلك. ولقد أثبتت الامتحانات القاسية التي اجتازتها الثورة الفلسطينية كم هي بعيدة عن الصواب التقسيمات والتصنيفات التي كانت توزع الأطراف والأشخاص على أساس تصور الآخرين لمواقفهم، وليس على أساس المواقف الفعلية لهم. ومن المؤكد أن الرأي العام الفلسطيني لن ينسى في وقت من الأوقات أن ياسر عرفات الذي يحلو للبعض أن يصفه بصفة الاعتدال، كان إبان الحرب الأخيرة الأصلب، وأن جورج حبش الذي يوصف بالتطرف، والذي لم تكن صلابته أقل، كان في هذه الحرب على اتفاق تام مع عرفات في كل القرارات العسكرية والسياسية. وفي مقابل ذلك، لعل الرأي العام لن ينسى أن قادة اعتاد أن يعدهم من بين الأصدقاء الحميمين للاتحاد السوفياتي، كانوا الأسرع في شن الهجوم على القيادة السوفياتية وسياستها، فيما وقف عرفات ضد أي هجوم على السوفيات، وعبر، بأفضل مما فعل سواه، عن الموقف الفلسطيني المعتمد والذي يضع الاتحاد السوفياتي على رأس الأصدقاء الدوليين للشعب الفلسطيني.

وعلى هذا، وإذا نحّينا جانباً أحاديث الخلافات، التي تصور في الواقع بأكبر من حجمها، والتي لا تنطلق على الدوام من اعتبارات فلسطينية محضة، تبقى معضلة العمل الفلسطيني من أجل التسوية، هي المقاومة الإسرائيلية المقتدرة للمطالب الفلسطينية، والدعم الأميركي الشامل لإسرائيل، والتناقض الصارخ بين المصالح الأميركية في المنطقة وبين مصالح الشعب الفلسطيني، وكذلك رخاوة ردود الفعل العربية الإجمالية ضد الولايات المتحدة واسرائيل، وإصرار دول عربية لها تأثيرها في ساحة الشرق الأوسط على زيادة تأكيد ولائها الأميركي كلما أمعنت واشنطن في الاستهانة بالحقوق العربية وبالحقوق الفلسطينية.

ومن الواضح بعد الحرب في لبنان، أن تطوراً سلبياً جديداً لحق بالموقف العربي، أساسه الضيق العربي المتراكم بمنظمة التحرير بسبب دورها، دورها أساساً، كمحرض ضد التوجه العربي إلى أميركا، وكمقاوم لهذا التوجه، وكعامل موضوعي ثابت التأثير في عرقلة بسط الهيمنة الأميركية والرجعية على المنطقة. ولأن الدول والقوى العربية التي تضيق بهذا الدور أعجز من أن تلغي وجود المنظمة، وأعجز من أن تتجاهلها، وأعجز، كذلك وفي نهاية المطاف، من أن تنظم العرس الأميركي ــ العربي بتخطي المطالب الوطنية الفلسطينية، فإن جهد هذه الدول والقوى يتجه الآن لتقزيم المنظمة، مع تغطية مناسبة من التبريكات والمجاملات، ولاختصار حقوق الشعب الفلسطيني، بحيث تصبح مستوعبة في مبادرة ريغان أو في شيء قريب منها.

ولو شئنا أن نصوغ عنواناً عاماً للعمل العربي المشترك بعد قمة فاس، فلن نكون مبالغين إذا قلنا إنه الخلاص من منظمة التحرير كمشاغب مزمن ضد الالتحاق العربي